هناك من جعلوا لله شركاء ، وجاء بها سبحانه بعد كل ذلك حتى يحفظنا ويغضبنا عليهم لنحذرهم ونتقيهم .

وإذا أحفظنا عليهم استحمدنا أي استوجب علينا حمده إذ أنه هدانا إلى الإيمان، فنقول : الحمد لله الذي هدانا إلى الإيمان .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ومادة الجن هي « الجيم » و« النون » وكلها تدل على الستر والتغطية والتغليف ، ومنها الجنون ، لأن العقل في هذه الحالة يكون مستوراً ، ونحن لا نرى الجن ، فهم مستورون ، والملائكة كذلك ، والمادة كلها مادة « الجيم » و« النون » تدل على اللف والتغطية .

« وجعلوا لله شركاء الجن » و« الجن » هو الخفي من كل شيء ، والجن - كما تعلمون - هم خلق من خلق الله فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الجن مستوراً حتى لا نعتقد أن خلق الله حي كائن ، يجب أن يتمثل في هذا القالب المادي، بل سبحانه يخلق ما شاء كما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لا تُرى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها : كل ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية ، لأن عقولنا قد تقف في بعض الأشياء التي لا تدرك ولا ترى ، لأننا لا نعلم وجوداً لشيء إلا إذا أحسسناه .

إن الحق سبحانه يوضح ذلك . فإياك أن تظن أنك تستطيع أن تدرك

كل ما خلقه الله ، فليس حسك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك لأن حسك له قوانين تضبطه ، فأنت ترى ، ولكنك ترى بقانون ، بحيث إذا بعد المرئى عنك امتداداً فوق امتداد بصرك فلا تراه وكذلك أذنك تسمع ، فإن بعد الصوت أو مصدر الصوت عنك بحيث لا تصل الذبذبة إليك ، فلا تسمع ، كذلك عقلك ، قد تفهم أشياء ولا تفهم أشياء أخرى ، ثم ضرب لنا فى وجودنا المادى أمثالاً تقرب لنا ذلك الخلق الخفى من الجن ومن الملائكة .

لقد وجدنا العقل البشرى قد هداه الله الذى قدر فهدى ، إلى أن يكتشف شيئاً اسمه « الميكروب » و« الميكروب » كائن حى دقيق جداً بحيث إن البصر العادى لا يدركه، ولكنه كان موجوداً، وفعل الأفاعيل فى الناس ودخل فى أجسامهم دون أن يشعروا كيف دخل وعمل فيهم وفى صحتهم ما عمل من الهلاك والموت مثل أمراض الطاعون والكوليرا وغيرها ، ومع ذلك فالميكروب كان موجوداً ومن جنس وجودنا ، أى هو مادة وله حياة وله فعل ، وله نفوذ فى الهيكل الذى يدرك وهو الإنسان .

وهكذا رأينا أن شيئاً خفياً لا يدرك ويهدد إنساناً ضخماً يدرك ، فهل معنى اكتشاف الميكروب أننا أوجدناه ؟ لا ، إن وجود الميكروب شىء ، وإدراك وجوده شىء آخر ، وإذا حللنا « الميكروب » نجد أنه من مادة الإنسان ولكنه دقيق جداً حتى إن العين المجردة لا تراه ، فلما اكتشف المجهر وكبرناه عرفناه ، وهذا الكائن الحى إن كنت لا تراه ، فعدم رؤيتك له سابقاً لا تعنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ولكنك لم تدركه ، ثم اكتشفت ـ أيها الإنسان ـ آلة جعلتك تدركه ، ولتعرف أن وجود شىء لا يعنى أنك من الضرورى أن تدركه ، فإذا قال الله لك : لى ملائكة من خلقى ، ولى جن من خلقى ، ولكنكم لا ترونهم وهم يرونكم ، فتقول : صدقت يا ربى ، لأن شيئاً من جنس مادتنا كان موجوداً ولا نراه ثم بعد ذلك رأيناه.

إذن فالأشياء التى نكتشفها الآن هى دليل على صدق البلاغ القرآنى بما

أخبر به من الأمور الغيبية، الجن مستور ، والمادة كلها ـ كما بينا ـ تدل على الستر ، فالجنون غياب العقل ، وجن الليل ، أى ستر وغطى ، والجنة لأن فيها أشجاراً وغير ذلك بحيث لا يظهر الذى يسير فيها فتكون ساترة لمن يدخلها .

إذن المادة كلها تدل على الستر ، وهل الذى نتعجب منه أنهم جعلوا الجن شركاء ، أو أن التعجيب ليس من جعل الجن شركاء بل من اتخاذ مبدأ الشركاء ، سواء أكان جناً أم غير جن ، إن التعجيب هنا من المبدأ نفسه ، فنحن لا نعترض فقط على ان الجن شركاء ، بل نحن نعترض على المبدأ نفسه ، أن يكون لله شريك من جن أو من ملائكة أو من غير ذلك ، ولهذا قدم المجعول ـ وهو الشريك ـ على المجعول منه ـ وهو الجن ـ مع أن العادة أن يقدم المجعول منه على المجعول ، فنقول جعلت الطين إبريقاً أى : أن الطين كان موجوداً ، وأخذت منه الذى لم يكن موجوداً وهو الإبريق .

ثم هل كان الشركاء موجودين وطرأ الجن عليهم ؟ أو كان الجن موجوداً وطرأ الشركاء عليهم ؟ فى هذه الحالة كان يجب القول : وجعلوا الجن لله شركاء ، إذن فالعجيبة ليس فى أن يكون الجن شركاء ، العجيبة فى المبدأ نفسه ، وكيف ترد فكرة الشركاء على أذهانهم سواء أكان الشركاء من الجن أم من غير ذلك ، ولهذا قال سبحانه : « وجعلوا لله شركاء » وساعة تسمعها تقول: أعوذ بالله « جعلوا لله شركاء » !! ولا يهمك من هم الشركاء ؛ لأن مطلق مجىء شريك لله هو الأمر العجيب ، سواء كان من الجن أم من الملائكة وكيف جعلوا الجن شركاء ؟ ألم يقل الحق فى كتابه إن إبراهيم قال :

﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة مريم)

وما هى العبادة ؟ العبادة هى أن يطيع العابد المعبود فيما يأمره به ، وما داموا يطيعون الشياطين فى وسوستهم فكأنهم عبدوهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ سورة سبأ)

فقالت الملائكة :

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وكيف كانوا يعبدون الجن ؟ إنهم كانوا يطيعونهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه ؛ لأن العبادة هي الطاعة ، وأنت أيها العابد لا تقترح العبادة بل تنظر فيما طلب منك أن تتقرب به إلى المعبود، إذن « افعل ولا تفعل » هي الأصل .

« وجعلوا لله شركاء الجن » ولماذا جاءوا لله بشركاء ؟ لماذا لم يعبدوهم وحدهم ويستبعدوا الله من العبادة ؟ لأن وجود شريك دليل على الاعتراف بالله أيضاً فلماذا جعلوا له شركاء؟ ولماذا لم يلحدوا وينكروا ويكفروا بالله وتنتهي المسألة ؟ لا . لم يفعلوا ذلك ؛ لأنهم رأوا أن الشركاء ليس لهم مطلوبات تعبدية وحين عبدوها - مثلاً - لم تقل لهم « افعلوا » و « لا تفعلوا » وليس هناك منهج لاتباعه ، لكن أحداثاً فوق أسبابهم ولا يستطيعون لها دفعاً قد تحدث فلمن يجأرون ؟ أللآلهة التي يعتقدون كذبها وبهتانها وأنها لا تنفع ولا تضر ؟ لذلك احتفظوا باعترافهم بالله ليلجأوا إليه فيما لا يقدرون على دفعه لا هم ولا من اتخذوهم شركاء ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ (من الآية ١٢ سورة يونس)

كأنه يريد عبادة الله للمصلحة فقط .

« وجعلوا لله شركاء الجن » . ومن العجيب - إذن - أنهم جعلوا لله شركاء ، مع أن الله هو الذى خلق العابد والمعبود ، والتعجيب من أمرين اثنين : أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، والعجيبة الأخرى أنه «خلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » وما معنى خرقوا له ؟ معناها أنهم اختلقوا ؛ لأن الخرق إيجاد فجوة في الشيء المستوى على قانون السلامة ، ولذلك قال فى السفينة :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

وخرقوا له . أى عملوا خرقاً فى الشيء السليم الذى تأبى الفطرة أن يكون .

﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأنعام)

أما القسم الذي ادّعى أن لله البنين فهم أهل الكتاب ؛ إنهم قالوا ذلك :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

أما من جعلوا لله البنات ، فهم بعض العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله .

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الإسراء)

وقال سبحانه :

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وسبحانه القائل :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾

(سورة النجم)

وهناك من العرب من جعل بين الله وبين الجن صلة نسب مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الصافات)

لقد افتروا على الحق وادّعوا أن اتصالاً تم بين الله وبين الجنّة فخلقت وولدت الملائكة .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾

(سورة الأنعام)

ولماذا يقول الحق : « بغير علم » لأن العلم يؤدى إلى القبض ، فالعلم قضية استقرائية معتقدة واقعة يقام عليها الدليل ، وهذا شيء لا واقع له ، ولا يمكن أن يوجد عليه دليل لذلك فهو قول بغير علم بل هو بجهل . هي إذن جهالة بأن يصدقوا في حاجة ولأنها واقعة وهي ليست واقعة ، ولا يقام عليها دليل لأنها غير موجودة ، ولو استقام الدليل عندهم بفطرتهم المستقبلة لأدلة البيان وأدلة الكون لتبرأوا مما اعتقدوا ، ولرفضوا أن يتخذوا لله شركاء .

وقد عرض الحق قضية طرأت على الأفكار المشوشة وقالوا : « شركاء » فقال : « سبحانه » ، أى تنزيهاً له من الشرك فى الذات وفى الصفات ، وفى الأفعال ، لأن ذاته ليست ككل الذوات ، وأفعاله ليست ككل الأفعال ، وصفاته ليست ككل الصفات ، ولذلك تأتى « سبحانه » فى كل أمر يناقض

نواميس الكون الموجودة . وخذ كل أمر يتعلق بالإله الحق في إطار « سبحانه » .
ولذلك حينما جاء الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس
ثم عرج به في ليلة واحدة وكان ذلك أمراً عجيباً ، أمرنا الحق أن نتقبلها في إطار
قوله الحق :

﴿ سُبْحَـٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَـٰتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ ﴾

(الآية ١ سورة الإسراء)

إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يقل : أنا سَرَيْت من مكة إلى بيت المقدس ،
إنما قال : « أُسْرِي بي » ، وما دام قد أسرى به فالقانون في الإسراء هو قانون الحق
سبحانه . فخذها في إطار سبحانه ، وهو القائل :

﴿ سُبْحَـٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ثم يأتي بما هو أوسع من إدراكك فيقول :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

كأننا سوف نعلم فيما بعد أشياء فيها زوجية ، وقد أزاح الكشف العلمي في
القرن العشرين بعضاً من ذلك ، فعرفنا الموجب والسالب في الكهرباء
والالكترونات ، وقوله : « ومما لا يعلمون » يفسح المجال لقضايا الكون التي تحدث
بنشاطات العقول المكتشفة .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَـٰنَهُ
وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ ﴾

(سورة الأنعام)

فـ (سبحانه) تنزيها له وتقديسا عن أن يقاس بالكائن الموجود . تعالى اسمه ، وتعالت ذاته ، وتعالت صفاته وأفعاله « عما يصفون » بأوصاف لا تليق بذاته .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى قال فى آيات أخرى :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

فإن كنت ترى فى نفسك عجائب كثيرة ، وكل يوم يعطيك العلم التشريحى أوعلم وظائف الأعضاء سرا جديدا فلا تتعجب من هذا الأمر ؛ لأن السماء والأرض إيجاد من عدم ، وسبحانه هنا يقول : « بديع » أى أنه - سبحانه - خلقهما على غير مثال سابق ، فمن الناس من يصنع أشياء على ضوء خبرات أو نماذج سابقة ، لكن الحق سبحانه بديع السموات والأرض، وقد عرفنا بالعلم أن الأرض التى نعيش عليها وهى كوكب تابع من توابع الشمس ، وقديما كانوا يقولون عن توابع الشمس إنها سبعة ، ولذلك خدع كثير من العلماء والمفكرين وقالوا : إن السبعة التوابع هى السموات ، فأراد الحق أن يبطل هذه المسألة بعد أن قالوا سبعة . فقد اكتشف العلماء تابعا ثامنا للشمس ، ثم اكتشفوا التاسع ، ثم صارت التوابع عشرة ، ثم زاد الأمر إلى توابع لانعرفها . وأين هذه المجموعة الشمسية من السموات ؟ وكلها مجرد زينة للسماء الدنيا ، وعندما اكتشفت المجاهر والآلات التى

تقرب البعيد رأينا « الطريق اللبنى » أو « سكة التبانة » ووجدناها مجرة وفيها مجموعات شمسية لا حصر لها ، وجدنا مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية . هذه مجرة واحدة ، وعندنا ملايين المجرات ، ونجد عالماً في الفلك يقول : لو امتلكنا آلات جديدة فسنكتشف مجرات جديدة .

ولنسمع قول الله :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن يجب أن نأخذ خلق السموات والأرض في مرتبة أعم من مسألة خلق الناس .

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وما دام سبحانه بديع السموات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية الفائقة خلق السموات والأرض الأكبر من خلق الناس ، إذن فإن أراد ولداً لطرأ عليه هذا الابن بالميلاد ، ولا يمكن أن يسمى ولداً إلا إذا وُلد ، وسبحانه منزه عن ذلك ، ثم لماذا يريد ولداً ، وصفات الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يكن الكون ناقصاً قبل ادعاء البعض أن للحق سبحانه ولداً . إن الكون مخلوق بذات الحق سبحانه وتعالى ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى ، وسبحانه لا يموت ؛ مصداقاً لقوله :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

والبشر يحتاجون إلى الإنجاب ليعاونهم أولادهم ، وسبحانه هو القوى الذى خلق وهو حى لا يموت ؛ لذلك فلا معنى لأن يُدّعى عليه ذلك

وماكان يصحّ أن تناقش هذه المسألة عقلا ، ولكن الله ـ لطفا بخلقه ـ وضّح وبيّن مثل هذه القضايا .

يقول جل وعلا : « ولم تكن له صاحبة » ، وماذا يريد الحق من الصاحبة ؟ إنه لايريد شيئا ، فلماذا هذه اللجاجة في أمر الألوهية ؟ . فلا الولد ولا الصاحبة يزيدان له قدرة تخلق ، ولا حكمة ترتب ، ولا علما يدبر، ولا لأي شيء ، ومجرد هذا اللون من التصور عبث ، فإذا كان الشركاء ممتنعين ، والقصد من الشركاء أن يعاونوه في الملك ؛ إله يأخذ ملك السماء، وإله آخر يأخذ ملك الأرض . وإله للظلمة ، وإله للنور . مثلما قال الاغريق القدامى حين نصّبوا إلهاً للشر . وإلهاً للخير ، وغير ذلك . والحق واحد أحد ليس له شركاء يعاونونه فما المقصود بالولد والصاحبة ؟ أعوذ بالله! ألايمتنع ويرتدع هؤلاء من مثل هذا القول :

« وهو بكل شيء عليم » فسبحانه هو الخالق للكون والعليم بكل مافيه ولايحتاج إلى معاونة من أحد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ
شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

انظر التقديم بكلمة رب ، قبل « لا إله إلا هو » كلمة « رب » هذه هي حيثية « لا إله إلا هو » ؛ لأن إلهاً تعني معبودا ، ومعبودا يعني مطاعا، ومطاعا يعني له أوامر ونواهٍ ، ولماذا ولأي سبب ؟ . السبب أنه الرب المتولي الإيجاد والتربية . ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه ؛ لأنه هو الرّب والخالق وهو الذي يرزق ، بدليل أننا حين نسأل أهل الكُفْر في غفلة شهواتهم : من خلق السموات والأرض ؟ تنطق فطرتهم ويقولون :

الله هو الذى خلق السموات والأرض . أما إن كان السؤال موجها فى مفاجأة مسبقة فأنت تجد المكر والكذب .

وحين تريد أن تنتزع منهم قضية صدق وتضع وتبطل قضية كذب فلتأخذهم على غفلة ودون تحضير فيقولون إن الذى خلق هو الله .

ورأينا الآلات التى صمموها ليكتشفوا الكذب ، وليروا العملية العقلية التى تجهد الكذاب ، أما صاحب الحق فلا يُجهد ؛ لأن صاحب الحق يستقرىء واقعا ينطق به ولايصيبه الجهد ، لكن الذى يكذب يجهد نفسه ويتردد بين أمور ويضطرب ولايدرى بأيها يأخذ ويجيب بإجابات متناقضة فى الشىء الواحد .

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادام هو خالق لكل شىء وهو الباقى فهو الأحق بالعبادة ؛ لأن العبادة ـ كما قلنا ـ معناها طاعة الأمر وطاعة النهى ـ ومادام سبحانه الذى خلق فهو الذى يضع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإن خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان ، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته ؛ لذلك هو الأولى بالعبادة . (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو) .

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أن يخلق كل شىء ، وقبل أن يخلق الملائكة ، وشهدت بها ملائكته ، وشهد بها أولو العلم .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

إذن فالله شهد بألوهيته من البداية ، ومن أسمائه « المؤمن » ونحن مؤمنون بالله ، وربنا المؤمن بأنه إله واحد ، وهذا الإيمان منه أنه إله واحد ،

يخاطب كل شيء يريده وهو يعلم أن أى شيء لا يقدر أن يخالفه ، إنه يخاطبه بقوله : « كن فيكون » ولأنه إله واحد يعلم أن أحداً أو شيئاً لم يخالفه ، لذلك يباشر ملكه وهو العليم بأن الغير خاضع لأمره ولا يمكن أن يتخلف عن مراداته ، أو تقول:« مؤمن » لما خلق ولمن خلق ، أى منحهم الأمن والأمان فهو سبحانه القائل :

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾

(سورة قريش)

لقد أوضح الحق سبحانه لنا : أنتم خلقى فإن أخذتم منهجى أطعمكم من الجوع وآمنكم من الخوف . (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) .

إذن فالمنطق يفرض علينا عبادته سبحانه ، والأمر المنسجم مع المقدمة ، أن لا رب ، ولا إله إلا هو ، إنه خالق كل شيء ، لذلك تكون عبادته ضرورة ، ويتمثل ذلك أن تطيعه فيما أمر ، وفيما نهى .

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الأنعام)

وهذه دقة الأداء البيانى فى القرآن ، فنحن فى أعرافنا نقول : فلان وكيل لفلان أى يقوم لصالحه بالأمور التى يريدها ، وسبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عليك ؛ لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك، مثل الوصى على القاصر هو وكيل عليه ، ويقول للقاصر : افعل كذا فيفعل ، وسبحانه وكيل علينا ، ولذلك نحن نطلب منه وهو الذى يستجيب لدعائنا بالخير ، فلا ينفذ رغباتنا الطائشة ، ونجد الأحمق من يقول : لقد دعوت الله ولم يستجب لى ، ونقول : إنك تفهم الاستجابة أنها تؤدى لك مطلوبك ، وسبحانه أعلم بما يناسبك لأنه وكيل عليك ويعدل من تصرفاتك ، وساعة تطلب حاجة ، إن كان فيها خير يعطيها لك، وإن كنت تظن أنها خير ، لكنها ستأتى بالشر لايعطيها لك .

وعلى من يدعو ألا يتعجل الإجابة . قال صلى الله عليه وسلم : «يستجاب لأحدكم مالم يَعْجَل ، يقول : قد دعوت فلم يستجب لى »[1] .

« وهو على كل شىء وكيل » أى سواء أكان هذا الشىء مختاراً أم غير مختار ؛ لأن المختار قد يختار شراً ، ولأن الله وكيل عليه يقول له : لا ، وغير المكلف ولا اختيار له ، مقهور لإرادة الله مثل النار ، فهى مأمورة أن تحرق ، لكنه أمرها ألا تحرق سيدنا إبراهيم وتبقيه سليماً .

وتأتى الآية التالية لتؤكد دواعى عظمته سبحانه فيقول :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

ولماذا لا تدركه الأبصار ؟ لأن البصر آلة إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئى إلى الرائى ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته ، وأصبح من يراه قادراً عليه ، ولصار مقدورا لكم ؛ لأنه دخل فى إدراككم، فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدوراً أبداً ، إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرَك : أنت قد ترى الشمس ، ولكن أتدعى أنك أدركتها ؟! لا . لأن الإدراك معناه الإحاطة، وحين يقال «أدركه » أى لم يفلت منه ، ولذلك عندما سار قوم فرعون وراء موسى وقومه قال أصحاب موسى : ﴿ إنا لمدركون ﴾.

أى لا فائدة ؛ لأن البحر أمامنا ، إن تقدمنا نغرق ، وإن تأخرنا أهلكونا وقتلونا . إذن « مُدرك » بمعنى محاطا به . فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادرا ، وصار الله مقدورا عليه . والقادر بذاته ــ كما قلنا ــ لاينقلب مقدوراً لخلقه أبدا .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكل ماعدا الله محتاج إلى الله لبقاء كينونته ، وكينونته سبحانه ليست عند أحد ؛ لـذلك « لاتدركـه الأبصار وهو يـدرك الأبصار » لأنـه إن قدر على الأبصار كلها فهو قادر بذاته ، والباقي مقدور له ؛ لأنه مخلوق له ، ومادام مخلوقا له يكـون مقدورا عليـه ولم يطرأ على المخلـوقين شيء جديـد يجعلهم قادرين بذواتهم (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) .

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا : هل الإنسـان يرى ربـه أو لايراه سواء في الدنيا أم في الآخرة ؟ بعضهم قال : لا أحد يـرى الله بنص الآية : « لاتدركه الأبصار » ونقول : لكن هناك آيات في القرآن تقول :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

و « ناظرة » تضمن الرؤية وتفيدهـا ، وأيضا فالله يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه ؛ لأنه القائل :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالكافرون محجوبون عن رؤيـة الله عقابا لهم . ولو اشتركنا معهم وحُجبنا كما حجبوا فما ميزتنا كمؤمنين ؟ ، إذن فـالعلماء لم ينتبهوا إلى أن هناك فـرقا بين الأداء القرآني ومـا يقولـون ؟ وحين يحتج عـالم منهم بأن رؤيـة الله غير ممكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى :

﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

إذن فالله يتجلى لبعض خلقه ، أما أن يراه الخلق فى الدنيا فلا ؛ لأن تكوينتنا غير مؤهل لأن يرى الحق ، بدليل أن الأصلب والأقوى منا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندك . فلما اندك الجبل خر موسى صعقا ، فإذا كان موسى قد خر صعقا لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه ؟! إذن فهو غير معد له .

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية ، وتجلّى خلافهم إلى أبعد حد ؛ فمنهم مجيز للرؤية ، ومنهم منكر لها ، وأرى أن خلافهم فى غير محل نزاع ؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية ، والكلام هنا عن نفى الإدراك ، والإدراك إحاطة ؛ والرؤية تكون إجمالاً ، إنما الإحاطة ليست ممكنة ، وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك متحدان فى المفهوم نقول : لماذا يكون الخلاف فى أمر الآخرة؟ لو أن الخلاف فى أمر الرؤية فى الدنيا لكان هذا كلاماً جميلاً ، ولكن الخلاف جعلتموه فى الآخرة .

إن آيات القرآن صريحة فى أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نعم الله على المؤمنين ، وهى زيادة فى الحسنى عليهم ، وحجبه سبحانه عن الكفار لون من العقوبة لهم ونقول - إيضاً - : لماذا لا تقولون إن الإدراك سيوجد فى الآخرة بكيفية ليست موجودة فى دنيانا ؟ لأننا فى هذه الدنيا معدُّون إعداد أسباب - وفى الآخرة سنكون معدين إعداداً لغير أسباب .

أنت هنا إذا أحببت أن تشرب تطلب الماء أو تذهب للماء وتشرب ، وحين تريد أن تأكل الشىء الفلانى ، تقول لأهل البيت : اصنعوا لى كذا أو تشترى ما تريده ، إنما هناك فى الآخرة بمجرد أن يخطر ببالك ماتشتهيه تجده أمامك ، وهذا قانون جديد لا ارتباط له بقانون الدنيا ، فلماذا لايكون فى تكويننا فى الآخرة أيضاً قانون يمكن به أن نرى الله وفى إطار ليس كمثله شىء ؟

إن فى الآخرة قضايا يتفق الجميع على أنها تخالف قوانين الدنيا ونواميس العالم المعاصر لنا الآن فى الأكل والشرب ، والتخلص من الفضلات ، لكن فى الآخرة سنأكل ونشرب ولكن لن توجد فضلات ؛ لأنك أنت الآن تطهى وتهضم ، وفى الهضم أنت تأخذ بعض الطعام ويبقى منه فضلات لابد أن تخرج ، لكن الطهى والهضم فى الآخرة بـ « كن » وليس له فضلات ، إنه طعام بقدرة القادر ، فى الجنة كل ماتريده ستناله دون أن ينفد ، وفى الدنيا أى شىء يؤخذ منه ينقص ، أما فى الآخرة فلاشىء ينقص لأن له مدداً من القيومية .

ويعقب الحق سبحانه وتعالى بعد القضيتين : « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » فيقول : « وهو اللطيف الخبير » ولطيف تناسب «لاتدركه الأبصار » و « خبير » يناسب « وهو يدرك الأبصار » ولطيف لها معنى خاص ، فالشىء اللطيف يستعمل فى دقيق التكوين ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الميكروب لم نعرفه إلا مؤخراً لأنه بلغ من اللطف والدقة بحيث لاتدركه العين ، لكن عندما اخترعنا الميكروسكوب رأيناه ،وإن دق الميكروب عن ذلك فلن نراه ، وقد اكتشفنا « الفيروس » ونحاول معرفة المزيد عن خصائصه ، إذن كلما دق الشىء يلطف ولا يمكن أن نراه، فالشىء إذا لطف شرف وعلا ونقول ـ ولله المثل الأعلى ـ : فلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف فى ذاته ويلطف بعباده .

إنك ساعة ما تسمع « لاطف » فهذا اسم فاعل ، مثلها مثل «آكل»، وحين نقول : « لطيف فهى مبالغة فى اللطف ؛ لأنه لاطف بكل إنسان وكل كائن وهذا يحتاج إلى مبالغة ، ولذلك نقول : رحيم ، وهى صيغة مبالغة ؛ لأنه يسبغ رحمته على عباده ، وأول مظهر من مظاهر اللطف ، هو تدبير أمورهم الدقيقة تدبيراً يحقق مصالحهم فى وجودهم . إننا حين تدبر كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقد خلق لنا الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، والربع يابس ، لأنه جل وعلا يريد أن يوسع رقعة الماء لأن المياه كلما اتسعت رقعتها ، كان البخر فيها أسهل وأكثر ، لكن لو كانت المياه عميقة ومساحتها قليلة فالبخر يكون على مستوى السطح فقط ، وهنا لايأتى السحاب بما يكفى الخلق من

الماء . لقد وسع الله سبحانه رقعة الماء كي يتبخر الماء ثم ينعقد كسحب في السماء ، ويصادف منطقة باردة ليتنزل لنا المياه العذبة لنشرب منها ، ونشرب أنعامنا ، ونسقي الزرع ، وكل ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف في الحق نجد أموراً لاتوصف ، ولذلك كل واحد من العلماء انفعل لزاوية من زوايا لطف الله على خلقه .. فواحد قال : هو « سبوغ النعم » وقال الثاني : « دقة التدبير » وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثير النعم على خلقه ، فالنعم التي منحها خلقه قليلة لأن خزائنه - سبحانه - ملأى وعطاياه لاتنفد ولا يعتريها نقص، ولذلك قال سبحانه :

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

أي أن نعمه الكثيرة على عباده قليلة ، وفي المقابل : يستكثر قليل الطاعة من خلقه أي يعتبرها - تفضلاً منه - كثيرة ؛ لأنه هو الذي يجزي الحسنة بعشر أمثالها .

إذن فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقة اللطف تكون دقة مأتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذي إذا ناديته لباك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعته كافاك وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذي منحك عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك فهو القائل : « يابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم ، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرول »[1] وكلها مظاهر لطف . وهو المنادي : « توبوا إلى الله » والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة»[2] وإذا قربت من الله هداك .

---

(١) رواه أحمد عن أنس .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس .

ويأتى عالم آخر ممن انفعلوا بصفات اللطف ، فيقول : الذى يجازيك إن وفيت ، ويعفو عنك إن قصرت ، وعالم آخر يضيف إلى معانى اللطف فيقول : من افتخر به أعزه ، ومن افتقر إليه أغناه ، وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : من عطاؤه خير ، ومنعه ذخيرة .. أى أنه لو منع عبده شيئاً فإنه يدخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف ، وهذا مناسب لقوله الحق : « لاتدركه الأبصار » إن لطفه سبحانه يتغلغل فيما لا نستطيع أن ندركه ، وحين تحلل أنت أى أمر قد لا تصل إلى فهم النعمة ، وإن وصلت فأنت لاتقدر أن تؤدى الحمد على تلك النعمة .

وقوله الحق : « وهو يدرك الأبصار » مناسب لكلمة « خبير » ، ونحن فى حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أى مشكلة من المشكلات نجد من يقول : نريد أن نسمع رأى الخبير فيها ، وفى القضاء نجد القاضى يستدعى خبيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى من هو متخصص فيه وعليم به ، إذن فالخبير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذى لايستعصى عليه شىء فى ملكه ، وهو الذى يدرك الأبصار ، فقوله : « لاتدركه الأبصار » يناسبها قوله : « لطيف » تماماً كما أن « وهو يدرك الأبصار » يناسبها « خبير » ، وهذا مايسمونه فى اللغة « لف ونشر » وهو أن يأتى بأمرين أو ثلاثة ثم يأتى بما يقابلها ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فمن مظاهر رحمته بنا سبحانه أن جعل لنا الليل والنهار ، ثم قال :

﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

لنسكن فى الليل ، ونبتغى فضله فى النهار ، وهذا اسمه ـ كما قلنا ـ «لف ونشر» .

ويقول الحق ـ سبحانه ـ بعد ذلك :

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة للمعنويات والإشراقات التى تأتى فى القلوب كالبصر بالنسبة للعين . و « الكون » يعطيكم أدلة الإبصار ، والقرآن يعطيكم أدلة البصائر ، فكما أن الله هدى الإنسان فحذره ونهاه عن المعاصى ومنحه النور الذى يجلى له الأشياء فيسير على هدى فلا يرتطم ولا يصطدم ، كذلك جعل المعنويات نوراً ، والنور الأول فى البصر يأخذه الكافر والمؤمن ، وكلنا شركاء فيه مثله مثل الرزق ، لكن النور الثانى فى البصائر يأخذه المؤمن فقط ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحديد)

وهو نور الهداية فى بصائر المعنويات ، فيوضح : أنا خلقتكم خلقاً ووضعت لكم قوانين لصيانتكم . فقانون الصيانة فى ماديات الدنيا للمؤمن والكافر ، وقانون الصيانة فى معنويات الحياة خاصة بالمؤمن .

وهو القائل :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النور)

ونعلم أن البصائر من المعنويات والمجيء للأمر الحسى ؛ كقولنا : «جاء زيد » أو «جاء عمرو » ولك أن تتصور البصائر وهى تأتى ، قال الحق :